مداخلة بعنوان: الفكر الإصلاحي الباديسيّ ومجالاته –المجال التعليمي أنموذجا–

طالبة الدكتوراه: حليمة حجاج

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة–

ملخص:

تبحث هذه الدراسة في فكر الشيخ عبد الحميد ابن باديس، رائد الإصلاح في الجزائر ومؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هذه الشخصية التي قضت أكثر من سبع وعشرين سنة من عمرها القصير في محاولة نشر الوعي في أوساط المجتمع الجزائري بجميع فئاته، وعملت كل ما في وسعها لانتشال الأمة الجزائرية من مستنقع الجهل والاستعباد والانسلاخ الذي عمل المستعمر الفرنسي على إغراقه فيه منذ أنْ حلّ بالجزائر، لجعل هذه الأرض العربية المسلمة أرضا فرنسية، وللوصول إلى هذا المبتغى طبقت فرنسا سياساتها الاستعمارية على كل مجالات حياة الفرد الجزائري، وبخاصة مجال التعليم لقناعتها بأنه كفيل –إنْ هو فسد أو شوّه– بتحقيق مأربها المنشود، إلا أنّ الشيخ ابن باديس تفطن لكل ذلك، وحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه عن طريق نهضة شاملة تبتدئ بمجال التعليم وتنتهي إلى المجالات الأخرى، ولذلك جاءت هذه الدراسة لطرح الإشكالية التالية: **ما مفهوم الإصلاح عند الشيخ عبد الحميد بن باديس، وما هو فكره الإصلاحي في مجال التعليم خاصة**، ومحاولة للإجابة عن ذلك استعملت المنهج الوصفي، ليصل هذا البحث إلى نتائج أهمها: إن الفكر الإصلاحي الباديسيّ منطلق أساسا من القرآن الكريم وسنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، لم يفصل ابن باديس بين التعليم والتربية ليقينه بأنهما أساس أي نهضة.

الكلمات المفتاحية: ابن باديس، الإصلاح، النهضة ، مجال التعليم

Abstract:

This study examines the thought of one of the pillars of Algerian reform .this charetcter who spent more than twenty-seven years of his short life trying to spread awarness among Algerian society in all its catagories .and he did everything in his power to lift the Algerian enslavement and alienation which the nation out of ignorance. french colonizer worked to drown it in since it came to Algeria . with the goal of making this Arab Muslim land a French land . to reach this goal France applied its various colonial polocies to the sectors of life of the Algerian individual. Especially the field of education because it is convinced that is guarantee of achieving its however. Sheikh Ibn Badis was aware of all this. and desired goals. tried to reform starting with the field of education.

what is the concept of reform for Ibn the research problem is: Badis? what is his reformist idea in the field of education? using the descriptive method. to reach the following results: Ibn Badis thought stems from the Quran and sunnah. education is the basis of renaissance.

Keywords: Ibn Badis. reform. renaissance. the field of education.

مقدمة:

تأتي الأمراض إلى بدن الإنسان فتنهش لحمه وتنخر عظمه، هذا هو حال الأمة الجزائرية منذ أن وطئتها قدم المستعمر الفرنسي، وجاء هذا المستعمر فوجد في الجزائر قوة وعلما ونظاما ملائما لتلك الفترة من الزمن، ولم يمض عن قرن حتى استحالت الجزائر دولة غارقة في بحر الظلمات، غارقة في ألوان الجهل والفقر، مقيدة بأغلال الاستعباد والذلّ من جميع نواحي الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية والتربوية.

حارب المستعمر الشعب الجزائري في أسس عقيدته فشوهها وأدخل عليها الأباطيل وبوادر الشرك، ودمّر المؤسسات الدينية وحرمه من حقه في العبادة، وحاربه في لغته العربية فألغاها وعوضها بلغته الفرنسية وأثار حولها حرب اللهجات العامية، وحاربه في عاداته وتقاليده فنسب له ما ليس فيه، وحاربه في أمنه واستقراره فشن ضده الحروب، ووضع له الخطط والسياسات الاستعمارية والقوانين الجائرة.

وفي ظل هذه الظروف العصيبة، كان لزاما على الأمة أن تتحرك وتستنهض همتها، خاصة مع انتشار الحركات التوعويّة والتحرريّة في المشرق الإسلامي، والتي امتدت إلى المغرب العربي بفضل اهتمام الجزائريين بها، فرمت هذه الحركات بفكرها وتلقفها بعض رجال الجزائر ممن حملوا على عاتقهم مهمة التغيير ورسم معالم طريق جديدة للأمة الجزائرية، ومن أمثال هؤلاء عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح في الجزائر وباعث أمجادها.

جاء ابن باديس في وقت كان فيه الاستعمار قد أحكم قبضته على كل البلاد وبخاصة المجال التعليمي، ففرنسا الاستعمارية استفردت بهذا المجال وضيقت عليه الخناق وجعلته مخصصا لرعاياه، محرما على الأهالي فأغلقت مؤسساتهم التعليمية، وتدخلت في طرق تعليمهم، وكان لزاما على ابن باديس دخول حلبة الصراع مع زملائه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين،لخدمة الشعب وتنوير عقله وإخراجه من ظلمات جهله، وتنوير قلبه بتعاليم الإسلام الصحيحة، ولذلك تركزت هذه الدراسة على الفكر الباديسيّ في مجال التربية والتعليم، محاولة الإجابة عن الإشكالية التالية: **ما هي ملامح الفكر الباديسيّ في المجال التعليمي لتحقيق النهضة العامة.**

المبحث الأول: الفكر الإصلاحي :

1-الفكر الإصلاحي في الوطن العربي:

قبل الحديث عن الفكر الإصلاحي البادیسيّ وجبت الإشارة إلى الفكر الإصلاحي في الوطن العربي، وذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبينما كانت أوروبا تستقبل عصر النهضة، كان العالم الإسلامي يغط في سباته العميق وسط الجهل والفقر والتخلف، وهنا بدأت حركات الوعي الديني تدب في جسد الأمة الإسلامية في المشرق العربي، تمثلت هذه الحركات في محاولات أشهر بعث النهضة الإسلاميّة والاستفادة من معارف العصر، مع السعي إلى الاستقلال من هيمنة الاستعمار ورفع الغشاوة عن العقول، ومن أشهر المصلحين في المشرق العربي نذكر:

- جمال الدين الأفغاني (1254 – 1314هـ/ 1839 – 1897م)، وهو الأب الروحي للإصلاح الذي عمل على إنهاض الشرق بأجمعه، رافعاً شعار الجامعة الإسلاميّة في شخص الخلافة العثمانيّة؛ إذ كان هدفه وحدة الشعوب تحت حكومة إسلاميّة. وقد اعتبر الثورة السياسيّة وسيلة لإصلاح الشعوب الإسلاميّة؛ فناهض الاحتلال الأجنبيّ، ودفع بالحركات التحرريّة الوطنيّة، وقد دعا الأفغانيّ إلى إصلاح المسلمين دينيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً، ووضع خطته في جريدة «العروة الوثقى» لتنوير الرأي الإسلاميّ حتى يتفهم حقوقه وواجباته، في ظل حكم دستوره الإسلام وأساسه العدل والشورى ومجالس نيابية[1].

- عبد الرحمن الكواكبي (1265 – 1320هـ/1848 – 1902م) انفتح على علم الاجتماع الإنسانيّ، وسلط جام غضبه على الحكم المطلق وهيأ النفوس للمطالبة بالحقوق من خلال كتابه «طبائع الاستبداد»، وشخَّص أمراض المسلمين، ورسم طرق معالجتها في كتابه «أم القرى»[2].

- الإمام محمد عبده (1266 – 1323هـ/1849 - 1905م) تشبَّع بآراء الأفغانيّ، وحاول تحرير الفكر من قيود التقليد وتطهير العقيدة من البدع والضلالات. فَهِمَ الدين على طريقة السلف وردَّ ضعف

---

[1]- رشيد مقدم، المشروع النهضوي عند رواد حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة -جمال الدين الأفغاني أنموذجا-، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر، مجلة قضايا تاريخية، العدد2، 1437هـ/2016م، ص219-221

[2]- رشيد مقدم، الرؤى الإصلاحية للمفكر النهضوي عبد الرحمان الكواكبي، جامعة الجزائر2، مجلة قضايا تاريخية، العدد11، 1441هـ/2019م، ص66-72.

المسلمين إلى الجهل بأصول العقيدة. واعتبر إصلاح أحوال المسلمين الداخليّة هو الوسيلة لمناهضة الاستعمار. فانصرف إلى إصلاح العقيدة والمؤسسات الإسلاميّة كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعيّة. ونظراً لأهمية التعليم في مشروعه اعتبر إصلاح الأزهر بمثابة إصلاح لأحوال المسلمين عامّة، وفي مواجهة التيارات الغربيّة دافع عن الإسلام، ودعا الأمة أن تعرف حقها على حاكمها.[3]

- محمد رشيد رضا (1282 – 1354 هـ/1865 – 1935م) أصدر «مجلة المنار» وقد حلت محل «العروة الوُثقى» في التجديد الدينيّ، والدعوة إلى الجامعة الإسلاميّة. وحاول بدوره تصحيح العقيدة والدفاع عن الإسلام، وإصلاح نظام التربية والتعليم، والانفتاح على تدريس العلوم العصريّة.

2- الفكر الإصلاحي الباديسيّ ومجالاته:

أ- مفهوم الإصلاح عند ابن باديس: ينطلق ابن باديس في تحديد مفهوم الإصلاح من القرآن الكريم بقوله تعالى:"ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنّه كان للأوّابين غفورا"الإسراء25، ليجعل له معنى شرعيا، وذلك عن طريق تتبع صفات الصالحين، "صلاح الشيء هو كونه على حالة اعتدال في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال، وفساده هو كونه على حالة اختلال في ذاته أو في صفاته بحيث تصدر عنه أو به تلك الأعمال على وجه النقصان... والصلاح هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد، والإفساد هو إخراج الشيء عن حالة اعتداله بإحداث اختلال فيه "[4]، فالصلاح إذن عند ابن باديس الاعتدال واتسام الأعمال بالحسن والكمال، وهو الأصل في الأشياء، وأما الفساد فهو الاختلال والنقصان، وهو بذلك العارض والطارئ عليها، والحالة الأصلية للمجتمع الجزائريّ هو العودة إلى الإسلام بنظمه، ثم الانطلاق منه مرة ثانية[5].

---

[3]- ينظر: منير صغيري، الفكر الإصلاحي التجديدي للشيخ محمد عبده وأثره على الحركة الإصلاحية في الجزائر، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، مجلة المعارف للبحوث والدراسات، العدد6، 2012-2013، ص259-262.

[4]- عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس"مجالس التذكير من كلام الله الخبير"، دار الرشيد الجزائر، ط1، 1430هـ/2009م، ص207-

[5]- ينظر: عمار الطالبي، آثار ابن باديس، جمع: عمار طالبي، الشركة الجزائرية الجزائر، ط3، 1417هـ/1997م، مقال:"صلاح النفوس وإصلاحها، مج1، ص231.

وجعل للإصلاح نوعين: نوع للأبدان ونوع آخر للنفوس بقوله:"فإصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء، وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة ...وإن صلاح الإنسان أو فساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، وإنما رقيه وانحطاطه باعتبار رقيّ نفسه وانحطاطها، وما فلاحه إلا بزكائها وما خيبته إلا بخبثها"[6]

ب- مجالات الإصلاح الباديسيّ:

- المجال الديني:

ويعد المجال الديني من أهم ما اهتم به ابن باديس، حيث شرع فيه بعد رجوعه إلى قسنطينة من رحلته المشرقية في سنة 1913 م إلى وفاته في 16 أفريل 1940 م، والإصلاح الديني في نظره يبدأ من تطهير القلوب وتغيير النفوس بالتقوى، وقد استمد أصول هذا الإصلاح من القرآن الكريم، بقوله:"لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه إلا بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه"وعامل التغيير الداخلي هو التربية، فيقول:" [7]، وأكد كذلك أنّ نهضة المسلمين إنّما هي بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر".

وقد أدرك ابن باديس أنّ تدهور العقيدة لدى الجزائريين مرجعه إلى تسرب شيء من الشرك الخفي الذي تغلغل في نفوسهم بسبب جهلهم بالإسلام بسبب الطرق الصوفية وكثرة البدع، ولذلك كان لزاما عليه أن يشن حربا ضد كل ما من شأنه أن يدنس عقيدة الجزائريين.[8]

- المجال الأخلاقي والاجتماعي:

حرص ابن باديس على ضرورة إصلاح أخلاق الجزائريين وبعث الروح الإسلامية فيهم من جديد بعد أن قضى عليها الاستعمار، وقد كان سنده في ذلك القرآن الكريم وطريقه هي تربية خلق الفرد بإصلاح عقيدته حيث قال:"إنّ الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا، هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت

---

[6]- المصدر نفسه، مج1، ص231-232

[7]- المصدر نفسه، ص75

[8]- ينظر: هرنون نصيرة، المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس، المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد50، 2018م، ص8

فسد الجسد كله"[9]، وهكذا فقد دعى ابن باديس إلى فضائل الأخلاق كالتواضع في غير مذلة، وإلى البعد عن الكبر والغطرسة.

إنّ إصلاح الأخلاق عند ابن باديس علاقة وطيدة بإصلاح المجتمع، لأن إصلاح الأفراد ينعكس بالإيجاب على سلوكه في مجتمعه"صلاح النفس هو صلاح الفرد وصلاح الفرد هو صلاح المجموع"[10].

إنّ صلاح المجتمع ينطلق من تطهير النفس من ضعفها وانحطاطها، حتى تتولد في الفرد الثقة التي تساعده على

خوض مشقات الحياة والصمود أمامها، بهدف تغيير الأوضاع إلى الأحسن وقلب المكاييل التي تكيل بها فرنسا.[11]

-المجال الجمعوي والصحفي:

أدرك ابن باديس أنّ العمل الإصلاحي لا يؤتي أكله في تكوين رجال قرآنيين يوجهون التاريخ ويغيرون الأمة ويحررون البلاد من الاستعمار إلا بإكماله بالعمل الجمعوي والصحفي، ونقصد به

تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث بدأ التفكير في تأسيسها في 1913م، في المدينة المنورة بيْن ابن باديس والإبراهيمي وكان هذا التأسيس ضرورة ملحة حتمتها ظروف الجزائر، وكان التأسيس شهر مايو من سنة 1931م، وقد كان لهذه الجمعية نشاطات مختلفة كالمحاضرات والندوات[12]، والعمل الصحفي لما للصحافة من أهمية في إصلاح المجتمع والتوعية بالواقع ورفع المستوى الثقافي والاجتماعي والسياسي وصناعة الرأي العام، فبدأ انشغال الجمعية بإنشاء لصحف لاتخاذها وسيلة للسياسة والتهذيب، ومن أهمها: **السنة، المنتقد، الشهاب، الشريعة، الصراط، البصائر**[13]

- المجال السياسي:

كان لزاما على بن باديس إصلاح الجانب السياسي، وعلى الرغم من أنه رجل علم ودين خاض غمار السياسة، لما للسياسة من تأثير مباشر على فساد حال الجزائريين بسبب السياسات الاستعمارية كالتشجيع على الاندماج والتجنيس، وسياسة التنصير والفرنسة لسلخ الجزائريين من هويتهم وجعلهم

---

[9]- عمار الطالبي، آثار ابن باديس، ص196

[10]- المصدر نفسه، ص96

[11]- ينظر: هرنون نصيرة، المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس، ص9-10.

[12]- أسعد السحمراني، لماذا اعتنت جمعية العلماء بالعربية، من أعمال ندوة دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، دط، 2016م، ص99.

[13]- ينظر: عليوان سعيد، فلسفة ابن باديس في الإصلاح: المفهوم، المجالات، الوسائل، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مجلة المعيار، العدد42، ص335

يذوبون ويتلاشون في المجتمع الفرنسي لتستقر في الجزائر إلى الأبد، وقد تصدى ابن باديس لهذه القضايا الخطيرة حيث يقول:"الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة، والذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي العام المعين من قبل الدولة الفرنسية"[14]

المبحث الثاني: الفكر الإصلاحي الباديسيّ في المجال التعليمي:

1- واقع التعليم قبل عبد الحميد ابن باديس:

اصطبغت الجزائر منذ فترة طويلة من تاريخها بالصبغة العربية الإسلامية، وخلال الفترة الزمنية التي سبقت الاستعمار الفرنسي وهي فترة الحكم العثماني،عرفت الجزائر وجود حالة ثقافية مناسبة لتلك الفترة، تمثلت في وجود تعليم بمواصفات تلك الفترة، كما جاء على لسان أحد الرحالة الفرنسيين بقوله: "في مدينة الجزائر تملك كثيرا من المدارس العادية التي يتردد عليها الأطفال ابتداء من سن الخامسة والسادسة فصاعدا، حيث يتعلمون القراءة والكتابة"[15].

كان التعليم قبل الفترة الاستعمارية غير خاضع لسيطرة الدولة، فلم يكن في الحكومة الجزائرية وزير أو وكيل أو مكلف بشؤون التعليم، ولم تكن هناك سياسات تعليمية، بل كان التعليم تحت إشراف الأفراد والمؤسسات الخيرية، باعتباره واجبا دينيا لحثّ الدين على التعليم، وواجبا اجتماعيا انطلاقا من تقاليد الجزائريين الراسخة وهي احترامهم للمتعلم وتقديرهم للعلم والعلماء، وأما تمويل التعليم فكان من خلال أموال الموسرين الذين جعلوا عقاراتهم وأراضيهم وقفا للطلبة والمعلمين، أجورا وسكنا[16].

---

[14]- ينظر: هرنون نصيرة، المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس، ص4-5.

[15]- نقلا عن محمد رزيق، الجرائم الفرنسية1830-1871، قرطبة للنشر والتوزيع الجزائر، ط1، 1435هـ/2014م، ص464.

[16]- ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي1500-1830، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1998م، ص313-115.

وكان نظام التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي مقسما إلى ثلاث مراحل[17]:

أ- مرحلة التعليم الابتدائي: وهو تعليم أولي يُشرف عليه "مؤدب"[18] مختار من أهل الحيّ، تتم في هذه المرحلة تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، وتعد"اللوحة" هي الوسيلة الرئيسية لهذا النوع من التعليم.

ب- مرحلة التعليم الثانوي: ويصل إلى هذه المرحلة التلاميذ الأكثر براعة والذين تزيد أعمارهم عن أربع عشرة سنة، ويعرف المعلم في هذه المرحلة باسم"المدرس" وهو موظف لدى الدولة، يتم تعيينه من طرف الباشا أو الباي، ويتقاضى الطالب في هذه المرحلة مبلغا نقديا كما يحصل على سكن وأكل.

ج- التعليم العالي: ويتمثل التعليم العالي في الجزائر في هذه الفترة بالجوامع الكبيرة، والتي كانت حلقات الدروس فيها موئل للطلبة والعلماء، وكان المعلم في هذه المرحلة يسمى أستاذا أو شيخا.

2- واقع التعليم في عهد ابن باديس:

عرف التعليم في الجزائر بعد 1830م تراجعا رهيبا، وذلك ناتج عن السياسة الاستعمارية، فقد سخر الاستعمار الفرنسي -منذ البداية- كل إمكانياته المادية والفكرية لتعديل الواقع اللغوي وتكريس سياسات مدروسة لإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية، وذلك من خلال سياسات كثيرة:

- تجهيل الشعب الجزائري من خلال القضاء على المنظومة التربوية الموروثة من العهد العثماني، فقد حرمت أغلب أبنائه من التعليم، ولم تطبق التعليم الإجباري إلا في مناطق معينة لترسيخ فكرة الإدماج، بالإضافة إلى تهديم المدارس والزوايا والمساجد، ولذلك فقد "كان حظ الجزائريين من التعليم ضعيفا جدا فلم يتعد 5بالمئة إلى غاية1914، و6بالمئة سنة1926"[19].

---

[17]- ينظر: محمد رزيق، الجرائم الفرنسية1830-1871، ص

[18]- مهنة المؤدب أو معلم الأطفال مهنة لا تجلب لصاحبها إلا الفقر، لأنه كان يعيش عيشة الكفاف دونما مورد قار، وكل ما يدفعه الآباء كان أجرا ضئيلا أو هدايا، وعادة ما يكون المؤدب من أهل الدروشة أو الصلاح أو العميان.

[19]- أبو بكر الصديق حميدي، خلفيات البعد اللغوي وآليات تجسيده عند جمعية العلماء، أعمال ندوة: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية، ج2، المجلس الأعلى للغة العربية، 2016م، ص130.

– طمس اللغة العربية وتدميرها، بل وجعلها غريبة في أرضها، عن طريق سياسة محاربة اللغة الفصحى، بحجة عجزها عن مواكبة التطور العلمي، وذلك بتعويضها بالفرنسية أو باللهجات العامية كالقبائلية، رغم أنّ "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي...إنّ هذا الوطن عربي، فيجب أن تكون لغته العربية رسمية"[20]

انتهاج الاستعمار الفرنسي سياسة الإبادة الجماعية وسياسة الأرض المحروقة، التي أثرت بشكل سلبي على العملية التعليمية، من خلال اضطرار أهل هذه المناطق إلى الخروج عنها، ومن بين النازحين الطلبة والمعلمون[21].

– السعي في غلق المدارس العربية الحرة وتضييق الخناق عليها من خلال وضح شروط تعجيزية لكل من يرغب في فتح مدرسة حرة "إنّ تعطيل المدارس العربية بالأوامر الإدارية–لأنّ المعلم الذي يعلم، أو الجمعية التي تُدير غير مرضيّ عنها– يُعدّ عقوبة للأطفال الصغار الذين لم يرتكبوا ذنبا، ولو أنّها عقوبة لهم في أبدانهم لقلنا: جرح ويندمل، ولكنّها عقوبة لهم في دينهم وشواعرهم وعقولهم...إنّ هذه المدارس التي شيّدتها الأمة لأبنائها بأموالها"[22].

– منع العديد من المعلمين من ممارسة التدريس، فقد تعرض بعضهم للعقوبات المختلفة والنفي لمجرد أنّهم يعلّمون الأطفال تعليما ابتدائيا بسيطا من خلال تعليم أشكال الحروف العربية وترتيب الكلمات، وعن ذلك يقول:"...وما مضت أسابيع حتى هاجت الحكومة وماجت، ...واستدعت المعلم وأعضاء الجمعية إلى إدارته مرارا، أمرهم بإغلاق المدرسة وطرد المعلم، وهددهم في كلامه بكل ما تمليه الغطرسة على جبّار مُستبد...وأما المعلم فقد نفاه حاكم مايو نفيا شفويا، وهدّده بالعقوبات الرّادعة"[23].

---

[20]– محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي تونس، ط1، 1997م، مقال"اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة، ليس لها ضرة"، ج3، ص207–208.

[21]– محمد رزيق، الجرائم الفرنسية 1830–1871، ص480.

[22]– الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، مقال "التعليم العربي والحكومة2"، ج3، ص220.

[23]– المرجع السابق، مقال"التعليم العربي والحكومة3"، ج3، ص225.

– إعاقة التعليم العربي الإسلامي عن طريق العناد السخيف والمعاكسة اللئيمة، التي توضح "سياسة المكر والخديعة التي فرضتها على تعليم أبناء الجزائريين إذ لجأت إلى فتح أبوبه مدارسها إلى الجزائريين لا لغرض سوى لصدّهم وإبعادهم عن أبواب المدارس العربية أو لتلقينهم تعليما يخدم طموحاتها"[24] وتتمثل هذه الطريقة في "تمديد ساعات الدراسة المسائية جميع المدارس إلى الساعة الخامسة، خلافا للقانون السائر في جميع المدارس، ولا موجب لذلك إلا تفويت ميقات المدرسة العربية على التلميذ، وليتهم يعمرون له تلك الساعة بنافع مفيد"[25].

– مصادرة أموال الوقف لتعطيل تمويل مدارس الأهالي، وضمها إلى مصلحة العقارات بقرارات جائرة.

ومن خلال ما سبق قوله نجد أنّ التعليم في الجزائر كان على أنواع ثلاثة:

أ– الزوايا: وهي جمع زاوية، الزاوية في الأصل ركن البناء أو الدار، أو صومعة الراهب المسيحي، ثم صارت مع الوقت تطلق على المسجد الصغير أو المصلى، وتجمع الزوايا بين هندسة المسجد والمنزل، فهي قصيرة الحيطان، منخفضة القباب والدعامات، قليلة النوافذ، وتكون دون مئذنة، فشكلها يوحي بالعزلة والهدوء[26]، وتعليم الزوايا تعليم تقليدي محض، يقوم بالتعليم الدينيّ والصوفي، كما يهتم بتحفيظ القرآن الكريم دون فهم لأسراره وبلاغته، وتدريس العلوم الدينية والأذكار واللغة العربية والتاريخ الإسلاميّ والتوحيد والمنطق والتصوف، "وقد صدر قرار بعدم قيام الزوايا بالتدريس إلا برخصة لا تعطى إلا بصعوبة وشروط، ومع كل هذه الصعوبات استمرت الزوايا تؤدي رسالتها التعليمية معتمدة على أوقافها الخاصة أو مواردها من زيارات الإخوان والأنصار والزكاة"[27].

---

[24]– مراق بيبي، مقال" موقف الإبراهيمي من التعليم الاستعماري الفرنسي بالجزائر"، كتاب تذكاري بعنوان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي العلامة المصلح والداعية الأديب جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 1430هـ/2009م/ ص294.

[25]– الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، مقال" التعليم العربي والحكومة3"، ج3، ص230.

[26]– دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت أفندي، طبعة مصر، ج10، ص331–.333

[27]– علي محمد الصّلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الأمير عبد القادر، دار المعرفة بيروت، دت، دط، ص715

ب– تعليم الكتاتيب: وهو بمثابة التعليم الابتدائي، وهو تعليم بسيط يشرف عليه معلمون أو طلبة، وكان الفرنسيون يمنعون تعليم أية مادة أخرى غير حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، دون توسع فيه أو تعمق، وفي سن الثالث عشر يغادر الكتاب دون مؤهل.

رغم بساطة هذا التعليم فهو يعدّ تعليما قاعديا أساسيا، ولذلك قوبل بالاستهداف من قبل المحتل الفرنسي بوسائل وسياسات ممنهجة، كتجريده من مؤسساته، وفرض الرقابة على المعلمين، وصعوبة منح الرخص، وعن مسألة الرخصة يقول الإبراهيمي:"أما المسلم فإنّه يقدّم الرخصة إلى أصغر مكلّف فيدخل به في بحر من الإجراءات لا ساحل له، حتى يفرغ جيبه، وتحفى قدماه، ويكلّ ذهنه، زيادة على السخرية والاحتقار ...والمحظوظ هو الذي يحصل على الرخصة في سنة"[28]

ج– تعليم فرنسي عربي: وهو التعليم المزدوج أو الموازي، غايته الوحيدة هي إفساد الأسرة الجزائرية ومنه إفساد المجتمع، والهدف الأكبر هو رغبة الحكومة في غسل مخ الصبية الجزائريين وتوجيههم نحو الفرنسة، وقطعه عن جذوره خاصة أبناء الموظفين لدى الإدارة الفرنسية من قيّاد وبشاغوات وقضاة، بهدف تكوين نخبة حريصة على استمرارية المصالح والنفوذ الاستعماري[29]، بالإضافة إلى رغبة المستوطنين في"أنْ لا يتعلم الشباب الجزائريّ خوفا من أنْ يطالب بحقوقه السياسية والمساواة مع الفرنسيين...ومع تمكن المستوطنين من الجزائر بدأ عدد التلاميذ الجزائريين في الانخفاض"[30].

يقول الإبراهيمي عن هذا النوع من التعليم أنّ عدم عناية فرنسا " بتعليم أولاد المسلمين، وما كان هذا التساهل رحمة منهم بهم، ولكن لتصدّ أكبر عدد منهم من غشيان المدارس العربية الحرّة، ثمّ تجريهم على برنامج فارغ إلا من التوافه، مضطرب الساعات، ...هذا ما نراه نحن، أمّا الحكومة فإنّها ترى أنّ بقاء أبنائنا هائمين في الأزقة معرضين للشر والفساد، خير من تعليمنا إياهم تعليما عربيا وإسلاميا"[31]

---

[28]– الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، مقال"التعليم العربي والحكومة1"، ص219.

[29]– ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص285.

[30]– علي محمد الصّلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ص713-714

[31]– الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، مقال"التعليم العربي والحكومة4"، ص229.

د–تعليم خاص بالفرنسيين: وهو تعليم الإدارة الفرنسية أو المستوطنون، الذي تصاغ فيه المناهج والبرامج، وتقسم فيه ساعات التدريس بطريقة تهدف إلى خدمة الفرنسيين وتلبية حاجياتهم وإسعادهم، ولم يعرف هذا التعليم أي صعوبة مادية ولا إدارية ولا مالية، فلم يكن للجزائريين حظ منه إلا بالعدد القليل، " قرر الفرنسيون إنشاء بعض المدارس الأهلية التي تختلف عن المدارس المخصصة للفرنسيين، ويعلّم الجزائريون فيها ليعملوا في مزارع وورشات الكولون"[32].

3– أسس الإصلاح التعليمي عند ابن باديس:

أ– إصلاح المناهج التعليمية: لاحظ ابن باديس أنّ المناهج المتبعة في زمانه ليست مناهج مناسبة لتنشئة أجيال المستقبل التي يطمح إليها، ويرى أنّ إهمال هذه الأجيال وعدم تربيتها تربية صالحة هو قضاء على الأمة، وعن ذلك يقول:"التعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطالع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه ولغيره..."[33] التعليم لن يكون تعليما إلا إذا كان المسلم عالما من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به، ولن يكون ذلك إلا إذا رجعنا به إلى التعليم النبوي في شكله ومضمونه.

ويرى ابن باديس انّ المناهج يجب أن تكون مبنية على الكيف لا على الكم، وذلك عن طريق[34]:

– التعليم يجب أن يُستمدّ من القرآن والسنة، وما كان عليه الخلفاء الراشدون.

– التركيز على الفهم وإعمال العقل وتشغيل المخيلة في الأمور الفقهية،أكثر من شحن الذاكرة.

– ضرورة مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين على حد سواء.

---

[32]– علي محمد الصّلّابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ص713.

[33]– عمار الطالبي، آثار بن باديس، ج4، ص74.

[34]– ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص47-48.

– ضرورة الاهتمام بالعلوم المعاصرة والتي تخدم البشرية جنبا إلى جنب مع العلوم النقليّ*ة، فاشتمل المنهاج الجديد على علوم كثيرة: القرآن وتفسيره، الحديث والعقيدة، الفقه والأصول، والمنطق والجغرافيا، والأدب العربي واللغة العربية بفنونها، والأخلاق والحساب والهندسة، وعلم الفلك والتاريخ.

ويقسم التعليم عند ابن باديس إلى نوعين: قسم المشاركة وقسم التخصص، فأما القسم الأول فيتساوى فيه المتعلمون في المعلومات كلها في مدة لا تقل عن ثماني سنوات، وأما القسم الثاني فهو ثلاثة فروع تخصصية: فرع القضاء، فرع الخطابة وفرع التعليم، ولا تقل مدة التخصص عن أربع سنوات في التخصص الأول، وسنتين في التخصص الثاني والثالث[35].

ب– الاهتمام بالمعلمين: إنّ المعلم هو أهم ركن من أركان العملية التعليمية، ولذلك أولاه ابن باديس العناية الأكبر وأقر أنّ المدرسة عليها أن تلتزم بحسن انتقاء المعلمين وجودة تكوينهم، وقد عاب ابن باديس مستوى المعلمين في عصره، وأشار إلى ضعف مستواهم لقلة اطلاعهم وتفقههم في كتاب الله وسنة نبيه وباقي العلوم التي يدرسها، وارتأى أنّ حل هذه المعضلة إنّما يكمن في تركهم للطرق التقليدية في التعليم، وضرورة مواكبة طرق التعليم الجديدة حتى لا يحمل أوزارا فوق أوزاره، بقوله:"فالعلماء إلا قليلا منهم أجانب أو كالأجانب من الكتاب والسنة من العلم بهما والتفقه فيهما ومن فطن منهم لهذا الفساد التعليمي الذي باعد بينهم وبين العلم بالدين، وحملهم وزرهم ووزر من هم في رعايتهم لا يستطيع إذا كانت له همة ورغبة أن يتدارك ذلك إلا في نفسه، أمّا تعليمه لغيره فإنه لا يستطيع أن يخرج فيه عن المعتاد الذي توارثه عن الآباء والأجداد رغم ما يعلم فيه من فساد وإفساد"[36]، ويقول أيضا عن ضرورة التكوين المستمر للمعلمين:"يتعلم الإنسان حتى يصير عالما ويصير معلما، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه، ومهما قضى من حياته في التعليم، وتوسع فيه وتكمل به، فلن يزال بحاجة إلى العلم ولن تزال أمامه فيما علِمه وعلّمه أشياء مجهولة يحتاج إليها، فعليه أبدا أن يتعلم ويطلب المزيد"[37].

---

[35]– ينظر: محمد مزياني، إصلاح التعليم عند ابن باديس، ص37–38.

[36]– نقلا عن:محمد مرغيت، فلسفة التعليم عند الإمام المجدد عبد الحميد بن باديس، حامعة أحمد دراية أدرار، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد4، العدد1، جوان2020، ص142.

[37]– نقلا عن: مزياني محمد، إصلاح التعليم عند الشيخ ابن باديس، ص44.

ج– تعليم المرأة: أدرك ابن باديس الدور الهام الذي تلعبه المرأة داخل المجتمعات، وأنه لا سبيل لجعل المرأة قادرة على بعث الحياة في المجتمع إلا بتربيتها وتعليمها، وقد وفهم السياسة الاستعمارية التي ركزت على إفساد المرأة ونزعها من جذورها لأنّها الأساس التي يتم به إصلاح أو إفساد الأجيال، ولعلمه بالخطر المحدق بالأمة إن هي تركت المرأة دون تعليم استنادا إلى آيات كثيرة من القرآن الكريم وردت بصيغة العموم للذكور والإناث، واستنادا أيضا على ما ورد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، رفض ابن باديس موقف العائلات الجزائرية من حرمان البنات من الذهاب إلى المدارس الحكومية التابعة للإدارة الفرنسية، وكذا منعت من الذهاب إلى الكتاتيب[38].

وتمكن ابن باديس من تصنيف المرأة الجزائرية إلى صنفين اثنين: أولهما البنت التي منعت نهائيا من التعليم، وثانيهما البنت المتعلمة تعليما فرنسيا أبعدها عن عروبتها وإسلامها، ولأجل هذا شرع ابن باديس ودون تأخير في إقناع شريحة كبيرة من المجتمع بضرورة إخراج المرأة من أوضاعها المزرية، وإتاحة الفرص لتعليمها تعليما عربيا إسلاميا دون الاختلاط بالذكور، وأقر أنّ التحرير الحقيقي للمرأة "...إذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها أما حجاب الستر فأنّه ما ضرها في زمان تقدمها"[39]

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة المقتضبة لفكر ابن باديس الإصلاحي، توصلت هذه الدراسة إلى هذه النتائج:
– الإصلاح ضرورة دفعت إليها ظروف الجزائر المستعمرة، وكان لزاما تحرك بعض رجال الوطن بنوع جديد من النضال لخدمة العلم والفكر ونهضة الأمة.
–ضبط مفهومي الإصلاح عند ابن باديس، والربط بين الإصلاح وبين التصور الإسلامي للنهضة، فالفكر الباديسيّ منطلقة القرآن الكريم والسنة.

---

[38]– ينظر: فتيحة عويقب، الجهود التربوية لعد الحميد بن باديس–المنهج والخصائص–، جامعة سيدي بلعباس الجزائر، مجلة روافد، مجلد6، عدد2022، ص343

[39]– نقلا عن: طالبي رتيبة، رجل الإصلاح النموذجي عبد الحميد بن باديس ودوره في نشر العلم وترقية المرأة، جامعة البليدة2، مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية، المجلد8، العدد1، ص 108.

– آمن ابن باديس أنّ التعليم يجب أنْ يكون تربويان هدفه نشر القيم الفاضلة، ولذلك فالتربية والتعليم لا يجدر الفصل بينهما.

–استطاع ابن باديس أن يقوم بتربية جيل، وتكوين أمة متبصرة بشخصيتها ومقوماتها، وأن يضع أصول نهضتها الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والدينية.

–إنّ الثورة الجزائرية الحقيقية تتمثل في التركيز على الجانب التربوي الخاص والعام؛ تربية الجيل في المدارس، والأمة في المساجد، وبرحلاته في مختلف أنحاء القطر الجزائري، ويكفيه أنه بنى الإنسان، وهو أصعب الأشياء.

– امتاز إصلاح ابن باديس بشموله لكل جوانب الحياة الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية وغيرها وذلك وفقا للحقيقة القرآنية، ولذلك فقد جاء مشروعه الإصلاحي مشروعا شاملا لكل ما من شأنه تحرير الجزائر وتحقيق النهضة.

– تميز الفكر الباديسيّ بالجمع بين التعليم التقليدي والتعليم العصري، لتتماشى نهضته مع روح العصر.

المصادر والمراجع:

– أبو بكر الصديق حميدي، خلفيات البعد اللغوي وآليات تجسيده عند جمعية العلماء، أعمال ندوة: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية، ج2، المجلس الأعلى للغة العربية، 2016م.

– أسعد السحمراني، لماذا اعتنت جمعية العلماء بالعربية، من أعمال ندوة دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، دط، 2016م.

– دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت أفندي، طبعة مصر، ج10، ص331–.

– رشيد مقدم، الرؤى الإصلاحية للمفكر النهضوي عبد الرحمان الكواكبي، جامعة الجزائر2، مجلة قضايا تاريخية، العدد11، 1441هـ/2019م

– رشيد مقدم، المشروع النهضوي عند رواد حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة –جمال الدين الأفغاني أنموذجا–، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر، مجلة قضايا تاريخية، العدد2، 1437هـ/2016م.

– طالبي رتيبة، رجل الإصلاح النموذجي عبد الحميد بن باديس ودوره في نشر العلم وترقية المرأة، جامعة البليدة2، مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية، المجلد8، العدد1

– عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس"مجالس التذكير من كلام الله الخبير"، دار الرشيد الجزائر، ط1، 1430ه/2009م.

– علي محمد الصّلّابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الأمير عبد القادر، دار المعرفة بيروت، دت، دط،

– عليوان سعيد، فلسفة ابن باديس في الإصلاح: المفهوم، المجالات، الوسائل، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مجلة المعيار، العدد42.

– عمار طالبي، آثار ابن باديس، ، مقال:"صلاح النفوس وإصلاحها"، جمع: عمار طالبي، الشركة الجزائرية الجزائر، ط3، 1417ه/1997م، مج1، ص231.

– فتيحة عويقب، الجهود التربوية لعد الحميد بن باديس–المنهج والخصائص–، جامعة سيدي بلعباس الجزائر، مجلة روافد، مجلد6، عدد2022.

– القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي1500–1830، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1998م، ص313–115.

– محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ، جمع: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي تونس، ط1، 1997م ، مج3.

– محمد رزيق، الجرائم الفرنسية1830–1871، قرطبة للنشر والتوزيع الجزائر، ط1، 1435ه/2014م.

– مراق بيبي، مقال" موقف الإبراهيمي من التعليم الاستعماري الفرنسي بالجزائر"، كتاب تذكاري بعنوان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي العلامة المصلح والداعية الأديب جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 1430ه/2009م.

– منير صغيري، الفكر الإصلاحي التجديدي للشيخ محمد عبده وأثره على الحركة الإصلاحية في الجزائر، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، مجلة المعارف للبحوث والدراسات، العدد6، 2012–2013.

– هرنون نصيرة، المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس، المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد50، 2018م.